# عيد البقاء

## تأثر الفكر الانساني

### خمسة قرون على اختراع جوتنبرج

—١—

ان وسائل نقل اختبارات الماضي المتجمعة آخذة في الازدياد والانتشار . على ان انفاق الاموال الطائلة وبذل الجهد المتشعب لتجهيز المدارس واعداد المعلمين يكاد يكون امراً جديداً في العمران . ولعله اهم ما يمتاز به عصرنا . كانت المعاهد في العصور الغابرة كمالات لا يتمتع بها الا قلائل من طبقات الاغنياء والأشراف . ولكنها كثرت الآن حتى غدا في وسع كل من يشاء تقريباً ان يصبح دكتوراً في الفلسفة . اننا لم نتفوق على أعلى مراتب النبوغ في العصور القديمة ولكننا رفعنا مستوى المعرفة العامة فوق كل مستوى بلغهُ التاريخ في الماضي . إن الجاهل فقط يرمي بأن العالم لم يولد ولادة جديدة بهذه المدارس المنتشرة والجامعات المشيدة في كل مكان تفتح أبوابها لكل طالب وطالبة للعلم والعرفان . ونحن اذا نظرنا الى التاريخ نظراً مشارفاً وجدنا ان تجربة التعليم العام لا تزال في مهدها . فالوقت الكافي لم ينقض عليها بعد لتجلي فوائدها . انها لا تستطيع ان تزيل في جيل واحد أو جيلين جهل عشرة آلاف سنة وأوهامها

الا ان التعليم ليس جماً مملوءاً بالحقائق والتواريخ بل هو وسيلة للاتصال بأعظم العقول اتصالاً يرفع النفس الى مستوى النبل . ولا هو استعداد للارتزاق فحسب ، بل اتمام للقوى الكامنة لفهم عالمنا والسيطرة عليه . انهُ في أوسع معانيه وأكملها وسيلة لنقل التراث العقلي والفني والصناعي والادبي الى اكبر عدد من الناس . فنحن لا نكاد نولد بشراً ، ولكننا نصير كذلك بما تسبغهُ البشرية علينا بمئات الوسائل والاساليب التي تنقل من الماضي الى الحاضر ذلك الارث الثقافي الذي رفع البشر اليوم على الرغم مما يتفشى بينهم من غباء وتعصب ، الى مستوى لم يبلغهُ جيل آخر من قبل

هنا تخذلنا الخيلة اذا حاولنا النفوذ عن طريقها الى ما كان عليه البشر قبل اختراع الكتابة والطباعة ، عند ما كانوا عاجزين عن نقل اختباراتهم الا بالكلمة الشفوية من الوالد الى الولد .

فاذا نسي جيل ما تلقن او أساء فهمه اضطرّ ان يعود الى أسفل سلم المعرفة ليتسلقهُ من جديد . فجاءت الكتابة ممهدة سبيل البقاء لمآثر العقل . انها حفظت في اثناء قرون من الفقر والجهل والوهم والاستبداد والغزو كنوز الحكمة التي كشفت عنها الفلسفة وآثار الجمال المرسومة في النثر والشعر وآيات العلم التي هدا اليها البصر الثاقب . انها ربطت الاجيال المتوالية برابطة التراث المشترك وخلقت بلاداً جديدة هي بلاد العقل التي لا يبقى فيها أثر للعقرية

وكما ربطت الكتابة الاجيال المتعاقبة ، ربطت الطباعة الحضارات . فقد تغير الحضارة موطنها ولكنها لن تزول من الارض وفي الارض كتب وخزائن لها . فاذا حدث ما دمرها او ردها القهقرى في بلاد ما كحرب او جفاف او جليد او وباء فني وسعها ان تزدهر في بلاد أخرى لان جميع اسبابها وأساليبها ومكتشفاتها مدونة في الكتب تتداولها الامم جيلاً . ليست الحضارة عبداً اتفاقياً مرتبطاً بالارض التي ولد عليها ولكنها كنز من المعرفة الصناعية والابداع الثقافي . فاذا كان في الوسع انتقال هذه المعرفة وذلك الابداع الى موطن جديد فلا يصح القول بأن الحضارة زالت لأنها انما غيرت موطنها . ولا يستحق الخلود الا الجمال والحكمة . فالفيلسوف لا يهمه ان تحظى مدينة دون غيرها بالخلود اذا اتيح لمآثره ان تعبر الاجيال حتى تصبح جزءاً من التراث الانساني

— ٢ —

جاء في دائرة المعارف البريطانية في طبعتها الرابعة عشرة:— «كان الصينيون الطبّاعين الأوّل . وأقدم كتاب مطبوع من كتل خشبية ، كشف في ولاية كانسو الصينية سنة ١٩٠٠ وقد طبع عليه « طبع في ١١ مايو ٨٦٨ بواسطة وانغ شيه Wang Chieh لتوزيع توزيعاً عامًّا احتراماً واجلالاً ورغبةً في تخليد ذكرى والديه » . واخترعت طريقة الطبع من حروف منفصلة في الصين بين سنة ١٠٤١ و١٠٤٩ . ولما كانت الحروف المنفصلة كثيرة جداً في اللغة الصينية لكثرة الرسوم الاساسية التي تقابل ما يعرف عندنا بالابجدية لم يذع استعمال هذه الطريقة . والى القارىء وصفاً فيه كثير من الطرفة وقليل من الخيال لمشهد اكتشاف أقدم كتاب صيني مطبوع وهو الكتاب الذي أشارت اليه دائرة المعارف البريطانية في ما تقدم

***

قال العالم الانكليزي الرحالة لتابعه الصيني : أتدري انهُ اذا صح ما يقال فقد يتحتم علينا ان نقح تاريخ آسيا قاطبةً ، إذ من يستطيع ان يتصوّر ما تنطوي عليه هذه الاسفاض من كنوز المعرفة . فردَّ التابع الصيني قائلاً : — سنرى

ومضى السر اوريل ستين Aurel Stein مع تابعه يفتشون في تلال الصين الغربي وسهوله

صوب مدينة تون لواتح . ولم تكن المدينة بذات بال في نظرها ، ولكن على مقربة منها قامت انقاض صومعة بوذية قديمة كانت تعرف بوصف « كهوف الالف بوذا »

وشحذت مصاعب الرحلة ومشاقها من عزم البحاثة الانكليزي لأنهُ كان يتوق الى ان يحوز من ورائها برؤية « خزانة الالف مخطوطة » التي كشفت هناك ، وما تنطوي عليهِ من حكمة وما تحتويهِ من أخبار تاريخ الصين والهند وتركستان

ودخل السائران وادياً وعراً جافاً مهوباً تقوم على جانبيهِ جُرُف من الصخر ، فلاحظ «ستين » في أحدها ثقوباً قاتمة فقال « يلوح ان في هذا الصخر عدداً لا يحصى من المغاور ». وكانت كثبان الرمل تغطي جانباً كبيراً من هذه الصخور ، وبدا للبحاثة الاوربي أن مداخل المغاور التي أمامهُ أخذت تتفتت بفعل عوامل الجو على مرّ الدهور ولكن مغارتين استوقفتا نظرهُ فلما بلغاها تبينا أنهما مزاران بوذيان فيهما تماثيل ضخمة لبوذا ارتفاعها تسعون قدماً

فاستقبلهما صبيٌّ شاب ، اسمهُ هوشانغ وكان أحد حراس ذلك المزار العتيق ، فقال الانكليزي : — يقال ان طائفة كبيرة من المخطوطات القديمة وجدت هنا ، وقد جئت من أبعد الاماكن لأرى كتب الحكمة هذه

فقال الصبي الشاب : — ان سيدي وانغ تاو شيه قد أوصد الحجرة السرية وهو غائب ولا اتوقع عودتهُ قبل ثلاثة أسابيع . فقال الانكليزي: — أفيجب عليَّ ان انتظر ثلاثة أسابيع قبل ان أشاهد هذه المخطوطات ؟ فردَّ عليهِ الصبي : — اذا شئت ان تشاهد الصور والرسوم والتماثيل فمرحباً إن بعضها يرتدُّ الى الف سنة او اكثر

وكذلك شرع صاحبنا الانكليزي يسرّح الطرف في آيات فاتنة من الفن الرفيع ، تقصُّ في مجموعها سيرة بوذا . ولكن ذهنهُ كان منصرفاً الى مسألة أخرى فسأل مرشده «هل كشف سيدك هذه المخطوطات » فقال « من سبع سنوات جمع سيدي مبلغاً من المال ليرمم بعض خرائب هذه المغاور ويعيد اليها بهاءها القديم ، واذ هو ينظف احدى الصور كشف المعال شقًّا في الجدار فاذا الجدار مبنيٌّ باللبن لا منقوراً في الصخر . فكسر هذا الفاصل اللبني واذا وراءه حجرة منقوشة في الصخر حافلة بألوف المخطوطات وأعلام الحرير الفاخرة»

فقال الانكليزي وكأنهُ يسأل نفسهُ : « ترى لماذا سدَّت هذه الحجرة بجدار من اللبن »

فقال الصبي : — من نحو تسع مائة سنة سدَّ النسَّاك هذه الحجرة لكي لا تقع محتوياتها الثمينة في ايدي الاعداء . ولبث السر اوريل ستين ينتظر عودة وانغ تاو شيه وهو قانع بأنهُ اذا سمح له بمشاهدة المخطوطات القديمة فان انتظارهُ مهما يطل لن يكون عبثاً

وعاد وانغ تاو شيه وبعد ما اصغى الى حديث صفه الغريب سأله « هل الجانب الانكليزي

يتوق الى الفوز بحكمة بوذا ؟» فبدت عليه امارات الرضا عند احتى الزائر رأسهُ وأطرق اجلالاً واجلالاً . وكذلك تقدم السيدُ الصيني الزائرَ الانكليزيَّ نحو الحجرة السرية . فلمع في عينيه ضوء الغبطة عندما شاهد على نور شمعة ضئيل حجرة مكدسة الى سقفها بالمخطوطات والأعلام وقال لضيفه

— انك لا تستطيع ان تتصوَّر مبلغ غبطتي اذا تفضلت فسمحت لي بفحص هذه الكنوز

والحال بدأ واتع تاوشيه يناول تابعهُ نفثة بعد نفثة من المخطوطات القديمة . هذا كتاب سنكريتي . . . وهذا كتاب صلاة تركي . . . وهذا . . . وهذا . . . حتى تكدست الارض عند قدمي الانكليزي بالمخطوطات في كل لغة شرقية

— انظر الى هذه الأعلام الحريرية ما ابدع رواءها وما أفخرها . قال واتع للسر اوريل

والتفت السير اوريل : ما اتم التناسق بين الالوان ! وما ادق اليد التي رسمت هذه الخطوط ! وقلَّب نظره يمنةً ويسرةً وهو لا يدري كيف يوجّه نابهُ أيخصُّ بالالوان الذهبية والحمراء والخضراء على الاعلام الحريرية ام بلفات الورق الذي صنع قبل الف سنة على الأقل — عصور قبل ان تسمع اوربا بذكر الورق . وبينما كان هوشانغ ينظر في الملفات التي يناولهُ اياها سيّدهُ استوقف احدها نظرهُ اذ وجد فيها صورة واحدة فصاح «قف قليلاً وانظر هوذا كتاب مطبوع»

فقال الانكليزي ما موضوع الكتاب ؟ اقرأ

فقرأ هوشانغ وكأنهُ ينشد وجوف المغارة يردّد اصداء إنشاده ...« وكذلك سمعت مايلي عن السيد بوذا . . . في احد الايام اقام بوذا في مملكة شرافاستي فنزل في غار جيتا . وكان معهُ الف ومائتان وخمسون من تلاميذه ، وكان كل منهم قد بلغ مبلغاً عظيماً من العلم . . . وكان النبيل سوبوتي متوسطاً الجماعة ، فوقف ثم ركع على ركبته اليمنى وضمَّ راحتيه ثم رفعهما نحو بوذا وصاح « يا من يملك فهماً يفوق كلَّ فهم ، يا اشرف الناس قل لنا ماذا يجب على تلاميذك ليدركوا الحكمة الكاملة ... فصاح الانكليزي هذا كتاب — القواعد المامية — «دياموند سوترا» فقال واتع :— وقد أحسنت تسميتهُ . لأنهُ كما يفوق الالماس جميع الجواهر الكريمة اشراقاً تفوق حكمة هذا الكتاب حكمة الكتب الاخرى . فقال الانكليزي — دعني ادقق النظر فيه

وما قلَّبهُ السر اوريل بين يديه حتى وافق هوشانغ على أنهُ مطبوع — مطبوع من كتل خشبية منقوشة . فصاح « انعلم مغزى هذا ؟ أن هذا اقدم كتاب مطبوع في العالم : «ذلك ان هذا الكتاب — وهو محفوظ الآن بالمتحف البريطاني بلندن — طبع سنة ٨٦٨ ب.م. أي بخمسمائة سنة قبل اختراع الطباعة في أوربا

— ٣ —

اخترعت الطباعة في أوربا في اواسط القرن الخامس عشر او قبلها . والآراء غير مجمعة على تاريخ

اختراعها بالضبط ولكنهم متفقون على تعيين سنة ١٤٤٠ لذلك. فالاحتفال بذكراها في اوائل هذا الشهر كان احتفالاً بانقضاء خمسة قرون على اختراعها. والآراء كذلك مختلفة في من سبق الى اختراعها يتنازع فخرهُ اثنان لورنس كوستر الهولندي ويوحنا جوتنبرج الالماني وثانيهما أشهر. اما لورنس كوستر فولد في هارلم سنة ١٣٧٠ ونشأ فيها وكان يحب الانفراد والتردُّد على الغياض ولما لم يكن لهُ ما يشغل بهِ كان يزرع قطناً من لحاء الاشجار وينقش فيها حروفاً هجائية ولبث يفعل ذلك منذ كان شاباً وينقش اسم من لعبت بفؤادهِ الى ان علاهُ الشيب فصار ينقش ما يُلتمس بهِ حفدتهُ. ونقش يوماً بعض الحروف ولفَّها في قصة من ازرق وعاد بها الى بيتهِ فلما فتحها رأى آثارها مطبوعة على الرق فانتبه من ساعتهِ لامر الطباعة بالحروف المفصولة ونقش حروفاً اخرى وجعلها معكوسة لكي يكون اثرها مستقيماً وضمها معاً ودهنها بالحبر وطبع بها قطعة من ازرق فاذا بالكتابة واضحة عليها وضوح الطباعة بصفائح الخشب.

فتوسَّم الخير في هذه الصناعة وقدَّر لها حسن الاستقبال وشمَّر عن ساعد الجد عازماً ان ينقنها ويجعلها غرض حياتهِ بعد ان كانت من تسلياتها. وكان الحبر الذي استخدمهُ ينقش على الرق فاستنبط حبراً لزجاً لا ينقش كذلك. ثم عنَّ لهُ ان يصنع الحروف من الرصاص بدلاً من الخشب ولما رأى حروف الرصاص لا تفي بالغرض ضمها بين اللحام لانهُ اصلب وامتن. ولكن اصابهُ ما كان يصيب كل مخترع ومكتشف اي ان الناس اتهموهُ بالكفر والسحر ونحو ذلك من التهم حسداً وعدواناً. وفيما هو يحاول اتقان هذه الصناعة رغماً عن حسد الحاسدين اتاهُ يوحنا جوتنبرج ونقلها عنهُ او استعان بهِ على اجراء ما كان في مخيلتهِ

ويوحنا جوتنبرج هذا ولد في أواخر القرن الرابع عشر من عائلة جرمانية ذات شأن ولهُ من الادب حظٌّ وافرٌ وكان مغرماً بالجولان فساح في ايطاليا وسويسرا وجرمانيا ودخل هولندا فاقى فيها كوستر كما تقدم فكاشفهُ كوستر بسرِّ صناعتهِ على ما يقول الهولنديون وأراه كتاباً في نحو اللغة اللاتينية كان قد طبعهُ بالحروف التي صنعها. والمظنون ان يوحنا كان قد تأمل في هذه الصناعة قبل ذلك. ومنهم من يقول انهُ كان قد اهتدى اليها بنفسهِ. وكيف كان الحال فالظاهر انهُ عزم من ساعتهِ على اتقانها فمضى الى ستراسبورج وصنع حروفاً من الخشب ونظمها بذلك معدني وطبع بها قطعة من الرق فجاء الطبع عليها جليًّا واضحاً. وكان في ضواحي المدينة دير هجرهُ الرهبان وسكنتهُ الخفافيش فقام فيهِ وجعل يعمل في الصياغة وصقل الجواهر وسبك الزجاج ونحو ذلك من الاعمال التي قصد بها التعيُّش والتستُّر وكان غرضهُ الاكبر اتقان فن الطباعة فعيَّن احدى غرف الدير الداخلية لهذا العمل وكان يقيم فيها كلما سنحت لهُ الفرصة يصنع الحروف ويطبع بها وحينئذٍ لاح لهُ ما لاح لكوستر وهو ان يصنع الحروف

من المدن فصنعها منهُ واستنبط انواعاً مختلفة من الحبر الملوَّن وفرش ومحابر لتحبير الحروف ومصفّات لصفها ومطبعة لطبعها على الورق . وكان اتقان الطباعة غرضهُ الوحيد من الدنيا فكان يفكّر فيهِ ليلاً ونهاراً . فحلم مرةً انهُ سمع صوتاً وحياً يقول لهُ ابشر فانك قد عملتَ عملاً عظيماً يخلّد اسمك . ولم يلبث ان سمع هذا الصوت حتى سمع صوتاً قبيحاً يقول لهُ الأشرار اكثر من الاخيار فيستخدمون الطباعة للشر فتكون ثمرتها اللعنة لا البركة . قيل ولما سمع ذلك انتبهَ افكارهُ وكثرت هواجسهُ فعزم ان يكسر جميع الادوات التي صنعها . ولكن خالج قلبهُ حينئذٍ ان لعلّ الله وهي خير يحفظ يستخدمها الاشرار للشر ولا يلزم عن ذلك ملاشاتها فأعرض عن كلام اللاحي

واشترك سنة ١٤٣٦ مع رجل اسمهُ اندراوس دوبزهن فلم تطل ايام هذا الشريك حتى توفي فعزم جوتنبرج على فسخ الشركة فلم يقبل أخو المتوفي بذلك ورافعهُ الى الحاكم فحكم لهُ ولو أبى جوتنبرج ما اشتركا فيهِ ما حكم عليهِ ولكنهُ فضل مباينة المدينة على الاباحة فأتى مينز سنة ١٤٤٢ واشترك مع رجل اسمهُ فوست سنة ١٤٤٩ وهو صائغ فني وطبعا كتباً كثيرة منها التوراة اللاتينية وهي أول توراة طبعت لا أول كتاب طبع ولكن السعد أبى الاَّ مساعدة هذا الرجل وذلك لان الكهنة نظروا الى الكتب المطبوعة شزراً والنساخ حسبوها عدواً عاملاً على سلب معيشتهم وزعموها من عمل الشياطين وقاوموها مقاومة يطول شرحها . الاَّ انها نجحت رغماً عن كل أعدائها . وامتدت الى رومية والبندقية وفلورنسا وميلان وباريز وغيرها من مدن أوربا قبل سنة ١٤٧٦ وبلغت انكلترا في تلك السنة وكوتلندا سنة ١٥٠١ ودبلن عاصمة ارلندة سنة ١٥٥١ . وحيثما امتدت وجدت اعداءها بالمرصاد فلم يقوَ الصناع على اتقانها وبقيت حتى أواسط القرن السابع عشر على ما كانت عليهِ حينما خرجت من يد كوستر وغوتنبرج في بساطة آلاتها أي انها بقيت مضغوطاً بسيطاً وسنة ١٦٢٠ حدثا وليم بلو الهولندي أول خطوة في ترقيها فصنع مطبعة فيها زنبرك يرفع الصفح الضاغط بعد ان يكون قد ضغط القرطاس على الحروف . وكان اكثر اجزاء هذه المطبعة من الخشب . ثم تلتها مطبعة فرنكلين التي استعملت في بلاد الانكليز بعد ذلك بنحو مائة سنة وهي مثل مطبعة بلو . وفي اواخر القرن الثامن عشر صنع ارن ستنهوب المطبعة المشهورة المنسوبة اليهِ من الحديد وجمع فيها بين العتل المركب والدولاب . وسنة ١٨١٧ صنع جورج كليمر الاميركي المطبعة المسماة بمطبعة كولمبيا . وسنة ١٨٢٩ صنع بطرس سمث المطبعة المسماة بمطبعة وشنطون . هذان الاخيران بالغان غاية الاتقان بين المطابع ذوات السطح التي تتحرَّك باليد

اما تقدم المطابع وارتقاؤها بعد ذلك فليس من غرض هذا المقال فنحيل القراء على ما كتبناه غير مرة في هذا الموضوع ولا سيما وصف مطابع جريدة نيويورك تيمس وقد وصفناها وصفاً مسهباً في مقتطف يناير سنة ١٩٢٥

— ٤ —

كان من نصيب العربية ان صنعت لها حروف الطباعة قبلما صنعت لاكثر اللغات لا لأن اهلها اهتموا بذلك بل لان اهالي اوربا كانوا يهتمون بكتب العرب وعلوم العرب فلم يكادوا يستنبطون الطباعة ويشيعونها في بلادهم حتى صنعوا حروفاً للغة العربية وطبعوا بعض كتبها العلمية الكبيرة مثل قانون ابن سينا طبع في مدينة رومية سنة ١٥٩٣ في دار الطباعة الطبية وطبعهُ واضح جداً ولو لم يعد جميلاً وحروفهُ متصلة بعضها ببعض احسن اتصال وهي على استواء واحد في سبكها فلا يظهر بعضها غائراً في الورق وبعضها غير غائر فيه . ومنها كتاب تحرير الاصول الهندسية لاقليدس الذي حرره نصير الدين الطوسي وقد طبع في رومية سنة ١٥٩٤ وحروفه مثل حروف كتاب القانون تماماً

وكان الطبع العربي معروفاً في اوربا قبل ذلك فطبع سفر المزامير في مدينة جنوى سنة ١٥١٦ وطبع الانجيل العربي في رومية سنة ١٥٩١ وانتشرت الطباعة العربية في كثير من المدن الاوربية فطبع الانجيل العربي في هولندا سنة ١٦١٦ والتوراة العربية في باريس سنة ١٦٤٥ وفي لندن سنة ١٦٥٧ ووصلت المطبعة وحروف الطباعة العربية الى جبل لبنان فطبع سفر المزامير في مطبعة الشوير سنة ١٦١٠ . ثم اهتم الاوربيون بتجميل الحروف العربية فبانت اولاً ما تراه في اشكال مطبعة مالطة التي انشأها المرسلون الاميركيون منذ نحو مائة سنة . وبلغت اعلى درجات الاتقان الصناعي في حروف مطبعة باريس

الا ان الذين صنعوا حروف الطباعة العربية حاولوا تقليد الخط تماماً وكان الخط قد ارتقى كثيراً وعُلّقت حروفهُ بعضها ببعض فلم يخطر لهم انهُ يمكن فصلها وتبقى مقروءة ولو فعلوا وصنعوا حروفاً منفصلة خالية من الزوائد لكانت الفائدة أتم

وقد رأى اصحاب المطابع العربية من قديم الزمان انهُ يسهل اتمام بعض الاشكال التي تشتمل في الخط وبقي الطبع العربي واضحاً فأهملوا كثيراً منها رويداً رويداً حتى صار الطبع على ما تراه في الحروف التي تطبع بها المقتطف الآن . الا ان مطبعة بولاق الاميرية بقيت محتفظة بأشكالها الاولى لا تحيد عنها حتى دعت الحال ان انتدبت الحكومة المصرية لجنة[1] تنظر في أمرها وفي كيفية اصلاحها برآسة صاحب السعادة ابرهيم باشا نجيب وكيل نظارة الداخلية اذ ذاك وعضوية حضرات شبلو بك مدير المطبعة الاهلية والجريدتين الرسميتين والشيخ حمزة فتح الله المفتش الاول للغة العربية في نظارة المعارف العمومية وامين سامي بك ناظر المدرسة الابتدائية ومدرسة المعلمين الناصرية واحمد زكي بك سكرتير ثاني مجلس النظار . فبحثوا بحثاً دقيقاً فأجلى

(١) مر بي من البيان ما لخص في فصل مسهب نشر في مقتطف ابريل ١٩٠٣

بحثهم عن فائدة كبيرة وقد نشروا نتيجة بحثهم في رسالة وجيزة قال رئيسهم في مقدمتها ما نصهُ:

«كان استنباط الصناعة العربية بمدينة البندقية فيما بين سنتي ١٥١٠ و ١٥١٤ ميلادية. فقد ثبت ان اهل هذه الجمهورية هم اول من حفر الحروف اللازمة لطبع الكتب العربية ثم استخدموها في طبع كتب الادعية والصلوات ولا تزال نسخ قليلة جدًّا من هذه الكتب محفوظة الى الآن بأشهر المكاتب العمومية بديار اوربا

«في ذلك العصر كثرت العلائق والمخالطات بين اوربا واقطار المشرق فمست الحاجة الى تعميم المعارف الشرقية بين الافرنج واضطرتهم الاحوال الى استخدام المطبعة لنشر آثار العرب في العلوم والآداب. فنهضت رومية العظمى واقتفت الخطة التي سلكتها البندقية في هذا الموضوع وفي تلك المدينة الجليلة التي كانت عاصمة لحضارة الغربية في قديم الزمان تم حفر الحروف العربية على قاعدة النسخ في سنة ١٥٩٦ وهي المروفة الى اليوم بحروف تائلة بدسيس

«وقد استعارت باريس من رومية هذه الحروف النسخية ولا تزال بأكملها محفوظة فيها وفي مدرسة نشر الديانة برومية الى الآن. وفي سنة ١٥٩١ اهتمَّ المسيو سفاري ده بريف سفير فرنسا لدى الباب العالي بحفر جملة أقلام (آباء) في الاستانة العلية على قاعدة النسخ وهي محفوظة ايضاً في باريس لصب الحروف واستخدامها في مطبوعاتها العربية

«ثم ازداد اشتغال العلماء المعروفين بالمستشرقين باللغات والعلوم الشرقية فاستعارت المدارس الجامعة في انجلترا وألمانيا حروف الطباعة العربية بعد تحسينها واتقانها في رومية

وكان تقدم الطباعة العربية بطيئاً في بلاد اوربا لان اشغالها كانت بالطبع قاصرة على اعمال معينة قليلة. ولذلك لم يكن لها نصيب كبير من حركة الارتقاء التي نالتها الطباعة الافرنجية اذ ما برحت من عهد ظهورها سائرة الى يومنا هذا نحو الارتقاء والكمال

ومع ذلك فقد بقيت الطباعة مجهولة في بلاد المشرق ما عدا الاستانة العلية وبعض الاديرة ببلاد الشام حتى اذا اغار بونابارت على مصر اضطر في اول الامر للاستعانة بمطابع الحجر على نشر منشوراته وأوامره باللغة العربية. ثم انشأ مطابع الحروف فيما بعد بالقاهرة والجيزة والاسكندرية. ولكن ادوات هذه المطابع تلاشت مع الاحتلال الفرنسي».

وبعد هذا المختصر التاريخي ورد ذكر مطبعة بولاق التي انشأها محمد علي باشا سنة ١٨٢٠:—

«قامت هذه المطبعة باكبر خدمة للغة العربية والآداب الشرقية فانها اصبحت في مصر وفي بلاد المشرق كلهِ واسطة لتعميم ثمرات التقدم الحديث ونشر لواء الحضارة العصرية اذ تيسر لنا بسببها ان نشترك في الحركة العلمية التي ارتقت بها الافكار والمعارف في ديار اوربا. وما زال محمد علي الخالد الآثار في هذه الديار بالغ في العناية بشأن هذه المطبعة ويواليها باهتمامهِ

الفائق حتى انها منذ انشائها صارت اعظم المطابع في عصرها بل فاقت عليها كلها بجمال مطبوعاتها وكثرة اعمالها . ولكنها بعد هذه النشأة الجيدة وبعد توالي نجاحها الظاهر الباهر وقفت في طريقها بل انحطت عن المكانة السامية التي بلغتها في ايام محمد علي

« بقيت مطبعة بولاق منذ تأسيسها الى سنة ١٨٨٠ قاصرة على الطباعة الشرقية فصارت في تلك السنة تختلفة بانضمام المطبوعات الافرنجية الى اعمالها وفي هذه الايام الاخيرة تمَّ تجديد بنائها على نظام جميل واستوفت كافة المعدّات الحديثة البالغة أعلى درجة من الاتقان والكمال . ولكن حروفها العربية التي اخنى عليها الزمان بقيت على حالتها السيئة مع ما فيها من التعقيد والسقامة

« لا مُشاحَّة في ان الطريقة التي روعيت في ابتكار الطباعة العربية تدعو الى صعوبات كثيرة منشأها تعدد اشكال كل حرف من حروف الهجاء بحسب موقعه من الكلمة وضرورة تراكب بعض الحروف وتداخلها في بعضها

« وهذه الصعوبات تستوجب حتماً ان يكون عمل المطابع جسيماً لا تعادله النتيجة التي يؤدي اليها . وفي ذلك ما لا يخفى من مخالفة قواعد الاقتصاد التي يجب التعويل عليها في ايامنا هذه في كل مشروع صناعي . فلهذه الاعتبارات اضطرت اكبر المطابع في اوربا للبحث عن الدواء الوحيد المعقول الذي ينبغي استعماله في مثل هذه الحالة ألا وهو تسهيل الطباعة العربية . فما زال اصحابها يواصلون السعي وراء هذه الغاية حتى لقد توصل بعضهم الى تخفيض عدد الحروف تخفيضاً يغبطون عليه . وكانت السابقة في هذا المضمار الى الآن مطبعة الجامعة باكسفورد من بلاد الانكليز فانها تمكنت من اختصار الحروف الى ٢٨٢ فقط . أما مطبعة باريس الاهلية ( وعدد حروفها لا يقل عن ٨٠٠ حرف ) ومطبعة بولاق ( بحروفها التي اوجدها محمد علي وعددها ٩٠٠ حرف ) فقد بقيت كلتاهما الى اليوم في معزل عن هذا التيار محرومتين من ثمرات ذلك التقدم والاختصار » . ثم قال ان اللجنة انتدبت اثنين من اعضائها وهما حضرة شيلو بك وحضرة احمد زكي بك ليدرسا في أشهر مطابع اوربا التقدم الذي وصلت اليه الى ان قال :

« وكانت مأمورية حضرة احمد زكي بك متعلقة على الاخص بالنظر في اختصار صندوق الطباعة وتسهيل جمع الحروف . وقد توصل بعد البحث والتدقيق الى تقليل عدد الحروف اللازمة للطباعة الى ١١٢ بدلاً من ٢٨٢ المستعملة الآن في اكسفورد . ولزيادة الوثوق كلفته اللجنة عمل تجارب واختبارات يومية في مطبعة بولاق استمرت مدة ثلاثة شهور وكانت نتيجتها ناطقة بأفصح بيان على ان الطريقة التي اختارها تكفي من كل وجه لجمع اي عبارة عربية او تركية او فارسية مهما كانت صعوبتها الخطية او المطبعية

« ثم قررت اللجنة ان تعهد بما قليل الى جماعة من مشاهير الخطاطين البارعين بكتابة الحروف تحت مراقبتها بحيث تجيء مطابقة من كل الوجوه لما تستدعيه صناعة الخط ومقتضيات الطباعة . . »